في ظلال التفسير النبوي للقرآن الكريم

للأستاذ : محمد العفيفي

ترتيب الرسول لآيات القرآن وسوره وتنظيم معرفتنا الانسانية :

١ ـ ترتيب السنة لآيات القرآن وسوره واستيعابه لكل أحوال المعرفة الانسانية .

٢ ـ البدايات والنهايات وأهميتها الكبرى في ترتيب آيات الله الكونية والقرآنية .

٣ ـ حدود المعرفة الانسانية في معرفة الترتيب الالهي في أجزاء الكون .

١ ـ ترتيب السنة لآيات القرآن وسوره واستيعابه لكل أحوال المعرفة الانسانية :

جعل الله السنة هي التي ترتب آيات القرآن وسوره ، حيث أمر الله رسوله بالقيام بهذه المهمة الكبرى .

وترتيب السنة لآيات القرآن ، له نتائجه العملية ، التي تربط عقولنا وقلوبنا ربطا وثيقا بالقرآن والسنة . فاذا تم هذا الفهم لمن كان أهلا له ، من الذين يتلون كتاب الله حق تلاوته ، ويجعلون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بابا مفتوحا دائما بينهم وبين كتاب ربهم ، كان ذلك هو السبيل الى التفسير الصحيح لكل حقائق الكون والحياة .

إن ترتيب السنة لآيات القرآن وسوره ، تؤدي إلى تنظيم التفكير الانساني ، مع كل صلة بين أحد من الناس ، وبين أي قليل أو كثير من القرآن .

ولننظر مثلا في هذه الجملة القرآنية وهي قوله تعالى : (**أفلا يتدبرون القرآن**) وقد جاءت ـ بسورة النساء في قوله تعالى : (**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**) (٨٢) النساء .

ثم جاءت ـ بسورة محمد في قوله تعالى :

(**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**) (٢٤) محمد .

إن هذا الترتيب في سور المصحف ، يجعلنا نتذكر مع اتصال القراءة أن هذه الجملة السابقة وكذلك كل قول قرآني آخر مهما قل أو كثر ، مما يجعل تفكيرنا منظما ومرتبا على نحو موافق تماما للواقع العملي في الكون والحياة .

فآية سورة النساء تبين لنا مصدر القرآن وهو الله تعالى ، والله متفرد بصفات الألوهية وليس كمثله شيء لذلك فان القرآن لا ينبغي أن تجد فيه أي اختلاف .

يأتي هذا في ترتيب السور ـ اولا ـ ثم يأتي ـ أخيرا ـ في سورة محمد باب أخير في قضية تدبرنا للقرآن ، يبين لنا أن الذين لا يتدبرون القرآن إنما هم منغلقون على أنفسهم ، فلا يتم لهم أي صلة بالحق واليقين .

وهكذا تبدأ القضية السابقة وتنتهي في ترتيب موافق تماما للواقع العملي ، حيث نزل القرآن وحيا من الله تعالى ، فكان ذكره أولى بالتقديم ، ثم وجب على الناس أن يتدبروا القرآن ، فكان ذكرهم أولى بالتأخير .

ولولا وجود الجملة السابقة بموضعيها كما تم ترتيبهما في هاتين السورتين ، ما ظهرت لنا أهمية هذا الترتيب كما تتجلى في الآيتين السابقتين من سورة النساء ثم سورة محمد .

وهكذا تفتح السنة أمام العقل البشري ، أبواب كل العلوم ، في ترابط وانسجام ، وأخلاق فاضلة ، ومشاهد جميلة ، في وحدة وتنوع ، لا مجال معها لأي تناقض بين العقيدة

الصحيحة ، والقول الصادق ، والعمل الصالح .

ذلك أن الذي يجعلنا نشعر بالوحدة والتنوع ، والجمال والكمال في كل ما يحيط بنا من آيات الله القرآنية وآياته الكونية ، إنما هو هذا الترتيب الالهي ، لأجزاء كتابه القرآني ، وكتابه الكوني ، مع استقلال كل منهما بحقيقته ، لأن الخلق غير الكلام ، وإن كان مصدرهما الواحد هو الله تعالى وحده لا شريك له .

والقرآن في جملته وتفصيله ، مرتب هذا الترتيب ، الذي تظهر لنا آفاق عظمته ، مهما تتجدد حاجاتنا إلى النظر في الارتباط بين أي جزء من أجزائه ، وبين القرآن كله في جملته الواحدة ..

وهنا يتجلى لنا أن القرآن لا يحاط بكل ما فيه من الاعجاز .

فنحن لا نستطيع أن نحصي الروابط بين قليل القرآن وكثيره ، وإنما سبيلنا إلى ذلك ، أن نعمل بما علمنا منه ، وأن نؤمن بما لم نحط به من علومه ، فنرده إلى عالم كما أرشدتنا السنة المطهرة إلى ذلك .

وننظر فنجد البشر لا يستطيعون أن يحصروا حاجاتهم إلى ما تتعدد مواضعه من حروفهم في كلماتهم ، ثم من كلماتهم بين الكلام كله في أي كتاب من كتبهم ، أو في أي حوار من حوارهم ، الذي يديرونه فيما بينهم .

أما كلام الله فهو يحمل معه إعجازه العظيم ، في تقدير الله لمواضع كل حرف أو كلمة أو جملة ، بحيث نقرأ القرآن قراءة متصلة فنتذكر الآيات المتشابهة ، ويلفت أنظارنا ما تحتوي عليه من المقاصد المتنوعة المتجلاة ، لنستخلص من كل منها ما خصه الله به من وجوه العلم ، ونكتشف الترتيب المعجزة في هذه المقاصد ، التي تتفق دائما ، مع ما يخضع لها من آيات الله الكونية .

وكذلك نجد النظام نفسه إذا ربطنا بين معرفتنا الانسانية وبين أجزاء الآيات القرآنية من حرف أو كلمة أو جملة ، حيث لا يتوقف البحث العلمي عند القراءة المتواصلة ، وإنما يتسع القرآن للبحث المباشر في كل جزء من أجزاء الآيات كلما تعددت مواضعه في القرآن كله ، لاستخلاص الأشباه والنظائر ، واستنباط الأحكام .

بل إن الأمر أعظم خطرا من ذلك ، حين تربط بين هذه الحقيقة المذهلة ، المليئة بدلائل الاعجاز ، وبين تفسير السنة للقرآن ، وارتباط مدلولات الأحاديث الشريفة كل منها فيما يخصه ، بمدلولات الآيات ومقاصدها .

ولعل هذا هو الأساس العظيم الذي جعل ابن جرير الطبري يخص كل عدد يسير من آيات القرآن في تفسيره ، بعدد كبير من الأحاديث الصحيحة التي تكفي وحدها ، لتفسير القرآن وتطبيقه تطبيقا عمليا على وجودنا ومعرفتنا بكل مكان وزمان ، بحيث يتنوع العمل في الآيات ، ثم يتجدد هذا التنوع في الأحاديث التي تفسرها ، والمقاصد واحدة ، في جملتها وتفصيلها ، لأن الله خص القرآن بما خصه به من

المقاصد ، ثم جعل السنة تنطلق بهذه المقاصد ، وتربطهما بحركة الوجود البشري ، في كل مكان وزمان .

٢ ـ البدايات والنهايات وأهميتها الكبرى في ترتيب آيات الله الكونية والقرآنية :

الوحدة والتنوع في آيات القرآن وسوره ، تقوم على ترتيب الآيات والسور ، كما تقوم على بداية ونهاية معلومة ، لكل سورة بين السور ، وكل آية بين الآيات .

فهذه البدايات والنهايات هي المعالم القرآنية ، التي تبين لنا الاعجاز ، في شكل القرآن ومضمونه ، بل إن هذا الفراغ هو الذي نرى من خلاله البدايات والنهايات لكل كثير أو يسير من الحروف ، والكلمات ، والجمل ، والآيات والسور .

فهكذا جعل الله كلا من القرآن والسنة ، مستقلا بتكوينه اللغوي ، حتى يكون هناك مجال لرؤية الوحدة والتنوع ، في كل منهما ، ومجال لمعرفة المقاصد المتجددة ، بكل منهما .

وهذا أمر له دلائل مماثلة في آيات الله الكونية ، كما ننظر فنجد الماء ملحا في البحر ، وعذبا في الأنهار ، فاذا تجاور هذا ، وهذا ، لم يبغ أي منهما على الآخر ، وإنما يتحرك كل نوع في مجالات حركته ، فتكثر نعم الله على خلقه ، ويدل بعضها على بعض ، وتتجدد النعم وتتنوع ، وكلها من الله وحده لا شريك له .

ولولا التفرق بين النجوم والكواكب والأقمار ، ما عرفنا كل نوع من هذه الأنواع ، بذاته ، إن تأملناه بصفة خاصة ، وما كانت هناك وحدة مترابطة ، بين أنواع الخلق كلها ، نكتشفها إذا نظرنا نظرة عامة إلى الكون كله ، لنجد الأقمار تدور حول الكواكب ، والكواكب تدور حول النجوم ، وهي تجري ـ مع ذلك ـ إلى قدر معلوم ، وكل في فلك يسبحون .

ونحن كلما أنعمنا النظر في هذه الفروق الدقيقة ، بين الوحي الالهي من قرآن وسنة ، وبين كلامنا البشري العادي ، مهما يكن مصدره ، في الفكر أو الفلسفة أو مصطلحات علومنا البشرية ، أمكننا أن نعرف الفضل العظيم لكلام الله وسنة رسوله ، في استيعاب حركة الوجود البشري ، بكل دقائقها ، والاحاطة بكل حاجاتنا إلى التقدم الاخلاقي والمادي . الذي لا ينفرط به عقد الحياة ، ولا تختلف دروبها ، ولا تتداعى معه الأفكار ، والأقوال والأعمال ، على حقائقها ، وإنما تصبح الحياة الانسانية ، على كثرة أهدافها وتنوعها ، كالشجرة الكثيرة الألوان والثمار ، التي لا تكشف عن الحركة والتجدد ، وقد أخذ كل جزء من أجزائها موضعه الصحيح ، وكل لون من ألوانها تركيبه الدقيق ، وكل حركة من حركاتها ، زمانها ومكانها المتفق مع وحدة الكون وتنوعه ، ومسيرة الدنيا كلها وهي في طريقها إلى الآخرة .

٣ ـ حدود المعرفة الانسانية في معرفة الترتيب الالهي لأجزاء الكون :

ونحن كلما أنعمنا النظر في قضية الترتيب الذي أتمه الله لآيات القرآن وسوره ، علمنا أن أي علم بشري ، لا بد أن يكون خاضعا لكتاب الله وسنة رسوله ، ليستلهم هذا المنهج العظيم ، في بيان حدود المعرفة الانسانية ، وتفسير حاجاتنا الدائمة للوحي الالهي .

ولننظر إلى ترتيب المعاني بهذه الآية من آيات القرآن .

١ ـ أو لم يتفكروا في أنفسهم .
٢ ـ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى
٣ ـ وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون . (٨) الروم .

إن ترتيب هذه الآية بموضعها من سورة الروم ، يؤدي دوره العظيم في بيان عظمة هذا الترتيب ، وما فيه من وجوه الاعجاز التي لا يحيط بها العقل البشري .

ويكفي أن نشير معا ـ هنا ـ إلى الوقف على أجزاء هذه الآية كما نجدها في قطاعاتها الثلاثة المبينة في الرسم الذي نجده في طبع هذه الآية على هذه الصفحة :

إن قوله تعالى (**أو لم يتفكروا في أنفسهم**)

يبدأ من داخل النفس الانسانية ، حيث يسبق التفكير دائما ـ كل قول وكل عمل .

لذلك علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، كيف نقف هنا ، وتكفل علماء التجويد والقراءات ببيان ذلك نقلا عن السنة الصحيحة .

والوقف هنا يؤكد هذا الترتيب في أجزاء هذه الآية ودلالاتها .

ثم يأتي قوله تعالى :

(ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى)

ليخرج أفكارنا من داخل أنفسنا ، حتى تواجه الترتيب الكوني كله ، بكل ما فيه من ثبات الخصائص ، وحركتها الدائبة في كل التراكيب والتراتيب ، والارتباطات ، التي يقوم عليها كل ما في الحياة من أصالة وتجديد .

ثم يأتي قوله تعالى :

(وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون)

ليختم لنا هذا الترتيب في أجزاء الآية ، بما يتبين معه إخفاق الكفار في فهم حقيقة التركيب الكوني الذي يدل على حتمية انتهاء الدنيا وإقبال الآخرة .

وواضح أن ترتيب أجزاء هذه الآية يقدم لنا نموذجا للاعجاز في ترتيب القرآن إذا قرأناه قراءة متواصلة ، بعد ما سبق من ظهور الاعجاز الذي رأيناه من قبل ونحن ننظر في أي جزء من أجزاء القرآن ، من حيث مواضعه وارتباطاته ، وما يؤدي إليه هذا النظر من ترابط المعلومات في المعرفة الانسانية في سياق واحد لا سبيل الى نقضه بأي حال من الأحوال .

ولكن الذي يهمنا هنا في المقام

الأول أن الله جعل لمعرفتنا الانسانية حدودا من حيث قدرتنا على تحصيل العلم من الوحي الالهي ، أو من خلق الله لمخلوقاته التي فطرها وجمعها في ترتيب كوني جامع لأجزائها ، ومواضعها وارتباطاتها ، وحركتها المتواصلة من الدنيا إلى الآخرة .

وحدود معرفتنا الانسانية مع القرآن ، لها طريقان اثنان لتلقي المعاني وبيان ترتيبها الذي يسره الله لعقولنا .

فأما الطريق الأول فهو يقوم على التلاوة المتواصلة التي هي أقرب ما تكون بالنظرة العامة الشاملة إلى آيات القرآن كما هي مرتبة في سورها .

وأما الطريق الثاني فهو يقوم على النظر إلى أي قدر من أجزاء القرآن ، من حيث ارتباطاته المتجددة بمواضعه في الآيات والسور .

فاذا نظرنا إلى مثل ذلك في آيات الله الكونية ، وجدنا حدود معرفتنا الانسانية ، متفقة تماما ، مع الطريقتين السابقتين ، لا تتعداهما أبدا بأي حال من الأحوال .

١ ـ فهناك النظر العام الذي يشمل آيات الله الكونية ، وهنا تختزن الذاكرة الانسانية المعلومات مرتبة كما رتبها الله في الواقع العملي للكون والحياة .

فالشمس لا بد أن تشرق ، حتى تظهر معالم الحياة ، وحتى يذهب النوم وتأتي اليقظة ، وحتى تتحرك الحياة الانسانية في نشاطها اليومي .

والفلاح لا بد أن يضع البذور في موضعها من باطن الأرض ، حتى تتبع ذلك مراحل الانبات والاثمار .

٢ ـ وهناك النظر في مواضع جزء بذاته من أجزاء المادة ، كما يبحث الباحثون عن مناجم الذهب ، فاذا الذهب نفسه هو الذي يفتح لهم ابواب وجوده ، كلما طالعهم بخصائصه التي يدل عليها ، تكوينه الشكلي ، ابتداء ، ثم يتبع ذلك ما نعرفه من ثبات خصائصه الواحدة ، بكل مكان وزمان .

والمجتمع الانساني والكوني كله ، يقوم على هذه الحركة المرتبة المعالم ، حيث يحمل كل فرد من خصائص مجتمعه ، ما يربطه به ويدل على ترتيبه بين أفراده جميعا ، وإن كانت حدود معرفتنا الانسانية ، مؤكدة لنا دائما ، أن العلم الحقيقي ، لله تعالى وحده لا شريك له .

فلا أحد من البشر ، يستطيع أن يحيط بالمعلومات الدقيقة ، في أي أمر لشدة خفائها ودخولها في أعماق الغيب .

ولا أحد من البشر ، يستطيع أن يستقطب كل معالم الوجود الكوني ، لسعته وكثرته .

والله وحده هو الذي لا يكثر عليه كثير لكثرته ولا يخفي عليه دقيق لدقته .

والانسان في ذلك كله بين اثنتين :
أولاهما ـ أن ينظر نظرا عاما فتنحسر رؤيته عن كل معالم الرؤية لكثرتها واتساعها .
وثانيتهما ـ أن ينظر نظرا خاصا

لمواضع أي جزىء من أجزاء الخلق ، ليرصد الأصالة والتجديد في ارتباطاته بكل مواضعه التي يتيسر الوصول اليها .

ولا شك أننا في الحالين لا نستطيع الاحاطة بترتيب ما هو عام بسبب كثرته على مداركنا .

كما أننا لا نستطيع أن نرد كل جزىء إلى ترتيبه بين أفراد مجتمعه كلهم ، لخفاء هذه الصلة الدقيقة بين كل جزئ وبين ما يربطه بترتيبه بين أفراد مجتمعه .

وقد نتساءل عن صلة ذلك بترتيب السنة لآيات القرآن وسوره ، وعظمة هذا الترتيب ، في تفسير كل شئ ، من أشياء الكون والحياة .

والجواب على هذا التساؤل نجده بقوله تعالى :

(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شئ قدير . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) (١ــ٤) الملك .

لقد علم الله رسوله هذا كله ، كما علمه كيف يرتب آيات القرآن وسوره . وكفى بذلك دليلا على حدود المعرفة الانسانية وحاجاتنا المتجددة إلى القرآن والسنة ولتنظيم الفكر البشري ، تنظيما لا ينبغي أن نجد له في كل محاولات البشر مصدرا مماثلا للوحي الالهي .